الرواية العربية من الالتزام إلى التجريب

التقنية والعوالم

الأستاذ: بلخيري عبدالمالك

يمكن أن نلج موضوع الرواية من خلال مقولة حميد لحمداني حيث يقول : " الكلام على ما يسمى بالنصوص الأدبية البشرية الخالدة أمر قابل للنقاش وتحضرنا هنا على سبيل المثال حالة فني الخطابة والرسائل ، إذ لم يعد لهما في الوقت الحالي تلك المكانة الأدبية المرموقة التي تمتعا بها في السابق ، كما أن بعض الأشكال الأدبية كانت بمضامينها خاملة الذكر ولكنها اكتسبت عافية جمالية ومضمونيه في اللاحق من العصور ، كانت ألف ليلة وليلة مثلا ، من هذا الصنف الخامل في الأوساط النقدية القديمة لكنها تمثل الآن منزلة مرموقة على المستوى العالمي .....وينطبق هذا على كثير من النتاجات القصصية الشعبية والخرافية والسير والرحلات [1]

إن الذي يمكن أن يستنتج من قول حميد لحمداني ، إذا كانت العصور الأولى احتلت فيهما الخطابة وفن الرسائل مكانة مرموقة، فالعصر الحديث تعافت فيه الرواية واحتلت الصدارة من خلال

[1] حميد لحمداني : القراءة وتوليد الدلالة ، تغيير عادتنا في قراءة النص الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، الطبعة الأولى 2003ص6/5.

Mokarabat

بروز نموذج ألف ليلة وليلة ، وبهذا الرأي فهو يرى بأن العصر الحديث هو عصر الرواية بامتياز وهذا في نظره راجع للدور الذي يحتله القارئ.

وإذا كان العمل في تطوير الرواية وظهور بوادرها يرجع إلى علماء المدرسة الشكلانية الذين تركز عملهم في أن يبحثوا في الخصائص التي تجعل من الأدب أدبا بالفعل ، ولخصوا هذه الخصائص في مصطلح واحد سموه الأدبية ، وقد دفعهم التركيز على الأدبية إلى دراسة المحايثة للنصوص الإبداعية دون النظر إلى علاقتها مع ما هو خارج عنها كحياة الأديب ، والواقع الاجتماعي والاقتصادي[1] .

كما ظهرت الأبحاث البنوية التي استفادت من نظرية دي سوسور من خلال تميزه مابين اللسان والكلام دون أن ننسى المجهود الذي قدمته المدرسة الانجليزية ممثلة في أبحاث بيرسي لبوك ، فورستر ، وإدوين موير.

هذا الأخير قسم الرواية إلى :

1-**رواية الحدث** : التي يتسم فيها سرد الأحداث عن طريق ثم و ثم أي أن العلاقات فيها تراكمية أكثر منها سببية ، إذ تعتمد على غياب الحبكة .

[1] حميد لحمداني : بنية النص السردي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب الطبعة الثالثة 2000 ، ص11.

Mokarabat

2-**رواية الشخصية** : وللشخصيات وجود مستقل عن الحبكة أما الحدث فهو تابع للشخصية ، ثم أن صفات الشخصية ثابتة لا تتغير وهذا حسب موير صفة جوهرية في رواية الشخصية ، ويشير موير إلا أن هذا المصطلح وصفه فوستر للشخصية المسطحة [1] وهذا المصطلح تصور للشخصية وليس قدحا.

3-**الرواية الدرامية** : وتتوازن فيها قيمة الشخصية بقيمة الحدث بحيث تقوم الحبكة على أساسهما معا، كما أن عنصر الزمن أساسي فيها والشخصيات فعالة بحيث ينشأ من ذلك دائما عنصر التوقع والأحداث فيها تعتمد على عنصر السببية خلافا لرواية الحدث كما يرى موير أن عنصر الزمن غالب على روية الدرامية بالعكس من العنصر المكاني على عكس رواية الحدث .

4-**الرواية التسجيلية** : فهو يرى أنها تفاعل مابين رواية الحدث التي تقوم على عنصر المكان والرواية الدرامية التي تقوم على غلبة عنصر الزمن[1]

إن موير بهذا التقسيم يضعنا أمام التقنية التي تتميز بها كل رواية مما صنف ، إلا أنه يمكن القول بعد أهم المراحل التي مرت بها الرواية من تطورات واهتمام من طرف اللسانيين سواء من علماء المدرسة الشكلانية أو البنوية والمدارس الأدبية والنقدية ، وهذا الاهتمام جعلها تتبوأ مكانة وترتقي في مصاف الأجناس الأدبية الأخرى .

[1] حميد لحمداني : بنية النص السردي ، ص 19/18.

Mokarabat

إن التطور الذي حدث على الرواية أدى بها إلى مسايرة خطوات الحداثة ونشوء ما يسمى بالرواية الجديدة التي تعتبر من المصطلحات التي أنتجها العمل الإبداعي الذي تميزت به الساحة السردية، والتي ارتبطت بجملة من التغيرات. وقد تشكل هذا النموذج الجديد عالميا مع مجهودات نتالي ساروت والتي عرفت الرواية بقولها : " بحث دائم يسعى إلى تعرية واقع مجهول أن اكتمالها مرهون ببحثها المستمر وأنها مغامرة ومجازفة[1] ."

ويعرفها كذلك روب غرييه بقوله : " في الرواية الحديثة التي وصلت أخيرا بنضجها بتصحيح المقولات الأدبية مثل الشخصية ، التاريخ ، الالتزام ، التفاعل بين الشكل والمضمون مجرد مبادئ أو مفاهيم إنتهت صلاحيتها[2] ."

أما الرواية الجديدة في الوطن العربي أو بما يعرف بالرواية العربية الجديدة فقد عرفت تطورا بفضل بعض الروائيين العرب أمثال إدوارد الخراط ، وصنع الله إبراهيم ، وجمال الغيطاني ، ووليد إخلاص ، ومحمد شكري ، وفؤاد التكلي ، وخليل الرز[3] .

وإذا كانت الرواية العربية التقليدية لا تختلف عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى ،إلا أن مؤرخوها يتأرجحون في تحديد نشأتها " بين رأيين أساسيين ، أولهما يرى أن الرواية العربية هي جنس أدبي جديد تماما عن الأدب العربي ، نشأ نتيجة الاحتكاك الثقافي بالغرب ، وبذا يقطعون جذوره عن

[1] Nathalie Sarraute,L Ere du soupçon, Editions Gallimard, Paris,1956 ،p8

[2] Minuit, Paris, 1967, p13 Alain Robb-Grillet:Pour un nouveau roman 1Editions de-

[3] *أحمد جاسم حسين :التجريب في الرواية العربية، الأسطورة و الاسطرة في روايات رجاء عالم الإشكالية سوريا ،دمشق ،ص1*

Mokarabat

موروثنا الأدبي الكلاسيكي والشعبي ، وثانيهما يرى أن الرواية العربية هي امتداد طبيعي للموروث النثري العربي المتمثل في ألوان نثرية كالسير والأخبار والحكايات الشعبية والمقامات وغيرها ، وتبعا لذلك يحاول الدارسون تحديد شهادة ميلاد الرواية العربية ، وهو ما يفعله أيضا و إلى درجة كبيرة من التشابه في السياقات والحيثيات – الدارسون العراقيون." [1]ليواصل ثامر فاضل قوله: " إن دارسي الرواية العراقية يشيرون إلى بدايات تراثية ذات طبيعة مقامية تؤرخ للرواية العراقية ، منها مقامات أبي الثناء الألوسي الصادرة عام 1956 ، وكذلك نص أحدث هو الرواية الايقاظية لسليمان فيضي الصادرة عام 1919، حيث يذهب أحد الدارسين إلى أن في الرواية الايقاظية ما يبرر وصولها بمقامة الألوسي في نواحي الروح والتفكير والمادة السجعية المتكلفة ، مع ملاحظة التوسع في اللون المحلي ، واخضاع القصة لغرض الاصلاح الاجتماعي ."[2]

ومن جانب آخر ، هناك من يقرن نشوء الرواية العراقية إلى أعمال محمود أحمد السيد ، وبشكل خاص أعماله الآتية :

- في سبيل التاج 1921
- النكبات 1922

- رواية جلال خالد 1928

ورغم الشكل الفني الذي ظهرت به الرواية العراقية ، إلا أنه يجب الاعتراف هنا بأن الرواية العربية في مصر وسورية ولبنان كانت السباقة في هذا المضمار إلى جانب ذلك ففي مرحلة التأسيس مرت الرواية العربية بمرحلة عرفت – بمرحلة الالتزام : هذا الالتزام القائم على مفهومين في نظرنا التزام قائم على التقيد بتقنيات والمقومات التي أعتمد عليها في تميزها عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى ،

[1] فاضل ثامر : المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي ، المدى سورية ، الطبعة الأولى 2004ص132.

[2] المرجع نفسه ، ص132.

Mokarabat

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد انعكس هذا الالتزام في الجانب الإيديولوجي الذي اعتمدت عليه الرواية العربية كخيار لحل مشكلة هذا الواقع المتغير والمتشابك من أجل تلبية طموح و أفكار المجتمع .

إن الذي يلاحظ على حسب رأي إدريس الجنداري أن الرواية العربية مرت بمسارين هما[1] :

1-**المسار الأول** : عرف بالرؤية الواقعية في الإبداع والنقد باعتباره منظورا فلسفيا وفكريا ساد إلى حدود السبعينات من القرن العشرين ، وحضرت هذه الأفكار الفلسفية الفكرية في مستويين :

أ-المستوى الأول : عملت فيه الرواية العربية على انتقاد الواقع وتوجيهه من خلال المكانة التي توسطها الروائي مابين المبدع والواقع ولم يتجاوز في ذلك حدود الوصف ، وقد عرفت هذه النظرة بالواقعية النقدية .

ب-المستوى الثاني : مستوى مثالي ارتبط بالمنظومة الماركسية التي تحولت من نقد الواقع وتوجيهه إلى تفسير الواقع والتفكير في تغيير معطياته ، وذلك من خلال تغيير واقع الجماعة . إن هذا المسار التفسيري يعرف بالواقعية الاشتراكية ، ويظهر هذا المستوى الإيديولوجي عندنا في الجزائر في العمل الروائي الذي قدمه الطاهر وطار في روايته الزلزال.

حيث يقول مصطفى فاسي : " رواية الزلزال هي ثاني رواية للأديب الجزائري الطاهر وطار ، وإذا كان هذا الكاتب قد اتخذ موضوعا لروايته الأولى اللاز ، تلك التناقضات التي رافقت ثورة التحرير ، فإنه انتقل في الزلزال إلى زمان بعد الاستقلال وإلى بدايات السبعينيات بالذات ليخصص موضوع روايته لموضوع الثورة الزراعية ، ولهذا فإن رواية وطار تأتي مؤيدة لقرار السلطة في عملها من خلال مشروع الثورة الزراعية على إعادة تقسيم الأملاك الزراعية بشكل عادل بحيث يتم القضاء

[1] ادريس الجنداري :أسئلة التجريب في الرواية العربية الرواية المغربية أنموذجا ، المغرب، ص1-2

Mokarabat

على الملكيات الكبيرة وتوزيع أراضي الأغنياء الزائدة على الخماسين وغيرهم ممن كانوا يشتغلون في الأرض دون أن يملكوها "[1]

إن هذه الفترة من مسار الرواية العربية ساد الالتزام والذي تبني مشروع الإيديولوجية من خلال الإخلاص والانتماء لها والتسليم بها في حل إشكاليات الواقع ، واتخاذ الرواية كشكل يتم من خلاله معالجة الواقع .

2-**المسار الثاني** : وهذا المسار عرف بمسار الرواية التجريبية ، إذا كانت حركة التجريب سباقة في حركة الشعر حيث تم الخروج عن نموذج القصيدة العمودية ، وقد شكلت هذه المرحلة من مراحل التجاوز الشعري في مجلة شعر والتي سعت إلى ترسيخ نموذج جديد في الكتابة الشعرية ، أطلق عليها أدونيس اسم قصيدة النثر وفي هذا الباب يقول سعيد يقطين : " كان من أهم ماتميز به هذا النص، علاوة على ثورته على بناء القصيدة العربية وإيقاعها ولغتها كقواعد متجذرة ، تفاعله مع بنية نصية غربية ، أي ترهينه لصور من الثقافة الغربية في مختلف عصورها . ويظهر لنا هذا بشكل جلي في تفاعله مع النص المتولوجي والملحمي والديني ، واستثمار العالم التخييلي في بعده الأسطوري كما تجلى مع عزرا باوند

و إليوت وعوالم الغصن الذهبي . وكان للتفاعل مع هذه البنية النصية الغربية أثره الكبير في استلهام ما ينظرون في التراث العربي – شخصيات متخيلة السندباد أو تاريخية الحلاج – مهيار أو حركات شعبية – ثورة الزنج – القرامطة . كان لهذا التفاعل مع هذه البنية النصية ذات الأبعاد الانسانية والتاريخية أثره في مواجهة بنية نصية جامدة تقوم على محاكاة النموذج التقليدي . وبرز هذا من

[1] مصطفى فاسي : دراسات في الرواية الجزائرية ، دار القصبة للنشر حيدرة الجزائر ، ص29.

Mokarabat

خلال تقديم نص جديد يرتهن إلى النص – الإبداع أو النص – القضية . يظهر لنا هذا في السجالات التي تمت حول الأصالة والمعاصرة ، والتجديد والتقليد ، الإبداع والإتباع ."[1]

إذا القصيدة العربية المعاصر جاءت بخاصية التجاوز ليظهر في شكله التجريبي فالرواية العربية التجريبية جاءت لتزكي هذا الخيار من خلال أعمال نجيب محفوظ التي صنفها النقاد في إطار الرواية التجريبية والتي نذكر منها :

1–رواية ألف ليلة وليلة: التي جرب من خلالها قوالب ألف ليلة وليلة

2–رواية رحلة ابن فطومة : التي جرب من خلالها قالب الرحلة ثم توالت أعمال تجريبية أخرى لجمال الغيطاني ، وصنع الله إبراهيم ، وهذا على مستوى مصر .

أما على مستوى المغرب العربي : في تونس فقد تطورت الرواية التجريبية مع محمود المسعدي من خلال روايته حدث أبو هريرة قال ، لتطور الرواية مع عزالدين المدني ، أما في المغرب الشقيق نجد الرواية التجريبية ظهرت مع أعمال العروي ، وبراد ، أما في الجزائر فقد بدأت الرواية التجريبية تعرف مكانتها من خلال أعمال أحلام مستغانمي في روايتها ذاكرة الجسد .

والطاهر وطار في أعماله :

- رواية الحوات والقصر
- رواية الوالي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي .
- وواسيني الأعرج في كثير من أعماله نذكر منها :
- سيدة المقام
- حارسة الظلال

[1] إدريس الجنداري : أسئلة التجريب في الرواية العربية ، الرواية المغربية أنموذجا ،المغرب، ص2، كما ينظر سعيد يقطين :انفتاح النص الروائي النص و السياق ، المركز الثقافي العربي ، المغرب الطبعة الثالثة ، ص105/104.

Mokarabat

- ذاكرة الماء

إن الذي يلاحظ على هذه الأعمال الروائية التجريبية في نظر النقاد أنها امتازت بالخصائص الآتية :

-ويرى إدريس الجنداري أن الرواية التجريبية عملت على تحقيق كم تراكمي يسمح بالمساءلة ، والمحاورة والتجاوز الذي عرفه سعيد يقطين بقوله : "الإفراط في ممارسة التجاوز؛ وهو ما تتم تسميته عادة بالتجريب؛ وهي التسمية التي تكرر الحديث عنها في أواسط السبعينات؛ في مناقشة قصص التازي والمديني؛ وفي الندوات؛ التي كانت تقام على هامش بعض المعارض التشكيلية؛ أو بعض العروض المسرحية؛ كالتي كان ينجزها مسرح الهواة؛ و بالخصوص مع تجربة محمد تيمد "[1]

- الرواية التجريبية تعمل على استثمار البعد النفسي في شكلي الخوف و القلق لأنهما يعتبران من أهم التقنيات في تطوير و تنمية البعد التجريبي في الرواية .

-إن أهم ما يميز التجريب في الرواية الحديثة هو قدرته على سمة التجاوز للقيود المعيارية كما استمدت الرواية التجريبية قوتها من مبدأ المساءلة لأن هذا الأخير هو أصل المعرفة .

إلا أن التجريب في نظر الدارسين الفعليين يتمركز حول التقنيات والعوالم الآتية :

- العمل على تكسير عامل الزمن .
- العمل على ربط الرواية والأجناس الأدبية الأخرى كالشعر ، والسينما .
- الاستفادة من اللغة في بعدها الفصيح و العامي.
- إحياء الموروث الحضاري واستدعاء الرصيد الصوفي

[1] ادريس الجنداري : أسئلة التجريب في الرواية العربية ، الرواية المغربية أنموذجا ، مقالة، ص 2

Mokarabat

- استثمار ميزة التناص وهذا ركز عليه الأستاذ سعيد يقطين فيما يسمى بالتفاعلات النصية بدل من مصطلح التعالي النصي عند جيرار جيينت ، ومصطلح التناص عند جوليا كريستيفا ومصطلح الحوارية عند باختين ، فهو يرى في التفاعلات النصية فائدة كبرى لما لها من أثر في تشكيل وبناء البنية للنتاج الروائي التجريبي.

وفي ختام هذا العمل يمكننا القول أن الرواية العربية التجريبية قطعت شوطا ، إلا أن هذا المجهود يبق ناقصا إذا ما قرن بالنتاج الروائي الغربي .

وعليه فالباحث العربي أصبح ملزما بالبحث في :

- الاهتمام بموضوع السرد انيات واستثمارها في تطوير جنس الرواية .
- البحث في موضوع التناص وتطويعه في ترقية تقنيات وعوالم الرواية التجريبية .
- البحث في الموروث الثقافي والفكري للأمة ، واستثماره في تطوير وتوجيه الرواية التجريبية.

Mokarabat

المراجـع :

1-إدريس الجنداري :أسئلة التجريب في الرواية العربية ، الرواية المغربية أنموذجا ، المغرب .

2-أحمد جاسم الحسين: التجريب في الرواية العربية ،الأسطورة الأسطرة في روايات رجاء العالم الإشكالية دمشق سوريا .

3-مصطفى فاسي : دراسات في الرواية الجزائرية ، دار القصبة للنشر حيدرة الجزائر.

4- فاضل ثامر : المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي ، المدى سورية ، الطبعة الأولى 2004.

5- حميد لحمداني : بنية النص السردي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب الطبعة الثالثة 2000 .

6- حميد لحمداني : القراءة وتوليد الدلالة ، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، الطبعة الأولى 2003.

7-سعيد يقطين : انفتاح النص الروائي ، النص و السياق ، المركز الثقافي العربي ، المغرب.

8-Nathalie Sarraute,L Ere du soupçon, Editions Gallimard, Paris,1956

9- Minuit, Paris, 1967, Alain Robb-Grillet:Pour un nouveau roman

- Editions de1

Mokarabat